بقلم: سامية حسين
مصر

توقّفت الحافلة كعادتها يوميا في المحطة القريبة من المستشفى العام، كانت المقاعد جميعها مشغولة بركابها، لكن الزحام الشديد وضيق الوقت أو ضيق السعة دفع بعض الواقفين إلى صعود درجات سلمه، كانت هذه المحطة بالذات تذكرني برائحة الدواء النافذة التي تتصاعد إلى أنفي بمجرد مرورنا بجوار المستشفى كل صباح. حاولت تبرير ذلك بوجود بعض الممرضين أو الممرضات من ركاب الحافلة.

من بين الركاب الجدد أثارت انتباهي سيدة سمراء الوجه، سوداء العينين، طويلة، ونحيفة، ترتدي جلبابا أسود، وتلف حول وجهها (إيشارباً) غامق اللون يكاد يخفي وجهها، ليست ملامحها أو ملابسها بغريبة، ولكن ما أثار انتباهي وانتباه الركاب معي هو التناقض البادي بينها وبين طفلها. نعم طفلها الذي حملته على كتفها، حقيقة لقد بدا كملاك بملابسه البيضاء الناصعة ووجهه الأبيض المستدير كالبدر، حتى الملاءة البيضاء التي لف فيها.

ما أعجب هذا التناقض؟

انشغل الركاب بالحديث عن أعمالهم وأحوالهم، ومنهم من انهمك في حل الكلمات المتقاطعة، أو انهمك في النوم العميق، وجدت نفسي مشغولة رغما عني بمراقبة السيدة السمراء التي احتضنت طفلها عند الباب، هرباً من الزحام. حرصتُ على مراقبة أمومتها الحانية وهي تمسكه بإحدى يديها، بينما تعلقت الأخرى بحامل حديدي، وجدتها حريصة على ألا تشعره بالاضطراب عندما نهتز جميعا في أحد المطبات. كانت حريصة على أن يأخذ قسطه الكامل من النوم الهادئ بعيدا عن معوقات الطريق.

بدت في ذروة انفعالها عندما مررنا بأحد المطبات، فشل السائق في تفاديه، وارتخت قبضتها على القضيب المعدني. أحسست وقتها بعروق يدها الممسكة بالطفل توشك على الانفجار. تخلت عن الحامل المعدني، واحتضنت الطفل بكلتا يديها، تعرضت للسقوط المفاجئ عندما تجاوز السائق المطب، ولم ينقذها سوى جذب الركاب لها لداخل الحافلة.

حينها أحسست بانتفاض جسمها بأكمله مع كل نبضة من نبضات قلبها، ووجدت شفتيها تنطقان بحمد الله وشكره. توقفت الحافلة في المحطة التالية ولكنها لم تنزل، بل صعد السلم كثير من الركاب الجدد الذين اصطفوا عند الباب فحجبوا عني رؤيتها تماما، ولكني من بين أجساد الركاب تمكنت من متابعة يديها. أظنها معبرة - أبلغ تعبير- عن وجه الأم وتغيرات الطريق.

بدا لي أن طريقها ما زال طويلا، مثلي تماما. انشغلت بعض الوقت بالرد على تساؤلات الراكب الجالس بجواري. سألني عن بعض إجابات للكلمات المتقاطعة، وكان واضحا أنه لا يجيد هذه اللعبة على الإطلاق. لقد كانت أسئلته تافهة ومحاولاته لإجابتها مضحكة. بدأ بقراءة الأسئلة عليّ حتى قبل أن يفكر فيها، وتطور الأمر حتى صارت مسابقة جماهيرية اشترك فيها أغلب الركاب، وعدت أنا لأراقب السيدة وطفلها.

كان الحظ حليفي عندما توقفت الحافلة في إحدى المحطات ونزل الراكب الجالس بجواري. لم تستعد السيدة للنزول، فحجزت لها المكان ودعوتها للجلوس بجواري، فجلست شاكرة. أحسست بنبرة الحزن الدفينة في كلماتها وخجلت من الاستمرار في النظر إليها.

كان طريقي اليوم طويلاً أطول من كل صباح، لأني اعتدت أن أرافق إحدى زميلاتي كي أقطع الطريق في

الحديث معها، تخيلت أن هذه السيدة ربما تحادثني، ولكنها لم تفعل، فلقد انهمكت في مراقبة الطفل بأسى بالغ. أردت أن أفتح مجالاً للحوار فقلت:

- طفلك رائع.. ما اسمه؟

- اسمه «نور».. ولكنه ليس ابني!

- اسم على مسمى.

نطقتها وأنا سعيدة باستنتاجي الأولي، بأن هذا الطفل لا يشبهها كثيرا.

كنت محرجة بشأن سؤالي القادم، وبدا ارتباكي.

وجدتها تنظر إليّ، وقد فهمت سؤالي فجاء الرد واضحاً:

- ابن أختي.. مات أبوه منذ يومين.

تلقيت الصدمة بحزن، ولكنها لم تفسح مجالا لحزني، فلاحقتني بدموع كلماتها:

- وماتت أمه منذ ساعة.

أحسست ساعتها بدوار في رأسي، وانتابني الحزن. فوجئت بدموعي تبلل وجهي، ويديّ اللتين حاولت بهما إخفاء ضعفي.

أدركت ما أصاب هذه السيدة، فأردت التخفيف عنها من خلال الكلام، وإرضاء لرغبتي في معرفة قصة هذا الطفل اليتيم.

- أهي حادثة؟

أجابت وقد اختلطت كلماتها بعبراتها، فصارتا مزيجاً من الحزن والوفاء:

- نعم.. حادثة سيارة، عندما خافت أختي على طفلها من خطر الارتطام، تقوقعت حوله. احتضنته بكل جسدها، كي تحميه، انتزعوه منها في المستشفى، فأصرت على احتضانه حتى... الموت!

صرخ الطفل فجأة عندما استيقظ من نومه، ربما كان جائعاً، انزعجت الأم بشدة، وبدأت تربته في حنو بالغ، حتى توقف عن البكاء فواصلت حديثها:

- مات أبوه.. قبل وصوله للمستشفى مباشرة، أما أمه فقد تشبثت بالحياة، حتى تحملني هذه الأمانة في عنقي، وتطمئن على بقائه معي، فهو يتيم الأبوين الآن.

انخرطت في بكاء عنيف، وانكفأت على الطفل تقبله، بللت وجهه بدموعها والطفل يحتضنها بعينيه، لا يحول بصره عنها، مسحت عنه دموعها، وبدأت ملاعبته ومداعبته، وأخفت أحزانا وراء ملاطفته الضاحكة. ربتُّ كتفها وأنا حائرة فيما يجب قوله:

- ليرعه الله ويتوله برحمته.. أنت الآن أمه.

أجابت في حنو:

- ربنا يحفظك يا ابنتي، يجب أن أنزل الآن، فهذه هي محطتي.

اخترقت طريقها بين الزحام، وهي تحتضنه بكلتا يديها، وعندما وصلت إلى الباب كادت رأس الصغير تصطدم بالحافة حتى لفت أحد الركاب انتباهها بقوله:

- حاسبي على ابنك يا حاجة!■